الكاتب: د/ زهرة الثابت
كلية الآداب القيروان- تونس

عنوان المقال: إيديولوجيا التطرف الديني في المنطقة العربية: أسبابها، مظاهرها، وطرائق علاجها من خلال دراسة مقارنة بين تونس وليبيا.

البريد الالكتروني:thzohra@gmail.com

تاريخ الارسال: 2019/05/07 تاريخ القبول: 2019/06/18 تاريخ النشر: 2019/06/30

إيديولوجيا التطرف الديني في المنطقة العربية: أسبابها، مظاهرها، وطرائق علاجها من خلال دراسة مقارنة بين تونس وليبيا.

Ideology of religious extremism in the Arabic region : reasons, aspects and solutions through a comparative study between Tunisia and Libya.

الملخص:

لاشك أن التطرف هو من أعقد القضايا الراهنة التي يواجهها العالم بأسره والمنطقة العربية على وجه الدقة. ذلك أن هذه الظاهرة قد نخرت جسم البلدان العربية وتفاقمت حدتها بعد ثورات الربيع العربي حتى أضحى المرء غير آمن على روحه وممتلكاته وعرضه جراء التعصب الديني وجراء سوء الفهم للدين. ونروم من خلال هذه الورقة معالجة هذه الظاهرة في ليبيا وتونس من خلال دراسة مقارنة تهفو إلى الحفر في أسباب التطرف التي توزعت بين أسباب نفسية وأسباب اقتصادية وأسباب تربوية وأسباب عقدية وأخرى سياسية. كما تطمح هذه الدراسة أيضا إلى البحث في مظاهر التطرف التي تجلت في التعصب للرأي وتكفير الآخر واستعمال العنف. ولكن الوقوف عند هذه المظاهر استدعى منا أيضا اقتراح طرائق بديلة للتصدي لهذه الظاهرة الخطيرة.

The absract :

It's undefeatable that Extremism is one of the most complexed issues nowadays that the world and the Arabic region stumble upon. So this phenomenon ruined the Arabic countries and increased after the Arabic Springs' revolutions, till the one doesn't feel himself secured neither his possessions nor his honor because of

fanatism and the misunderstanding of the religion. And we aims through this paper to deal with this phenomenon in Libya and Tunisia through a comparative study that aims to find the reasons of extremism which are divided into psychological, economic, educational, religious and political reasons. And also, this study aims to search the signs of extremism that appeared in the fanatism,the atonement and violence.But facing those signs, demanded also from us to propose other solutions to overcome this dangerous phenomenon.

الكلمات المفاتيح: التطرف – ليبيا– تونس- التعصب - العنف – أسباب التطرف- مظاهر التطرف – طرائق مواجهة التطرف.

Key words: Extremism – Libya – Tunisia - fanatism – reasons of extremism – signs of extremism – solutions to overcome extremism.

مقدمة البحث

تعتبر الإيديولوجيا من أهم المفاهيم المسيطرة على الساحة الثقافية بشكل لافت للانتباه، وهي تحتل منزلة مهمة في حياة الإنسان لأنها الأفق الذهني الذي " يجد الفرد فيه كل العناصر التي يركب منها أفكاره في صور متنوعة، يوظف منها لأغراضه القليل أو الكثير، لكنه لا يستطيع القفز فوق حدودها. هي مرتعه الذهني والمنظار الذي يرى به ذاته ومجتمعه والكون كله"[1]. وجليّ أن الإيديولوجيا أضحت ظاهرة كلية تعلقت بمستويات الوجود الاجتماعي كافة حتى بتنا نتحدث اليوم عن الإيديولوجيا الاجتماعية والإيديولوجيا السياسية والإيديولوجيا الدينية خاصة، ذلك أن أواصر القربى بين الإيديولوجيا والدين وطيدة إذ هي أبدا تحاول استنطاق النص الديني التأسيسي لتفسره وتؤوله وتعيد إنتاجه، منصبة نفسها حارسة القول الإلهي الذي سيصبح مع الزمن قولها بعدما ادعت الإحاطة به وتفسيره تفسيرا قطعيا لا رجعة عنه فكانت بذلك نهجا في التطرف ونزوعا مفضوحا نحو التشدد.

والتطرف الديني من أهم الظواهر المجتمعية التي اجتاحت المنطقة العربية، بل من أكثرها ذيوعا وانتشارا خاصة بعد اندلاع ثورات الربيع العربي، إذ باتت خطرا يهدد الإنسانية في أمنها واستقرارها وخطرا يهدد الأنظمة الحاكمة والاستقرارين الإقليمي والدولي عموما، بسبب ما

تكبدته الدول من خسائر جسيمة في الأرواح والعمران والمكتسبات، حينما استحال التطرف إرهابا وسفكا للدماء وإزهاقا للأرواح وانتهاكا للأعراض باسم الدين.

وغدت بذلك المنطقة العربية جسما عليلا نخره التعصب والغلو في فهم الدين وادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة. وليس أدل على ذلك ممّا عانته ولا زالت تعانيه بعض الدول العربية كالعراق وسوريا ومصر وليبيا وتونس وإن بدرجات متفاوتة. فالتطرف على هذا النحو إذن معضلة أرقت الكثير من الحكومات في العالم العربي فضلا عن الغرب الأوروبي لأنها قضية يصعب توصيفها إذ هي القضية الراهنة الشائكة والحاضرة حضورا لافتا للانتباه إن في الدراسات الفكرية أو المنابر الإعلامية أو حديث الساسة. حتى ليمكن القول تجوّزا أنه لم تحظ ظاهرة اجتماعية معاصرة في حقول الدراسات الإنسانية بالاهتمام مثل ما حظيت به ظاهرة التطرف، إذ هي حاضرة حضورا متوهجا في العلوم الإنسانية كعلم الاجتماع وعلم النفس وهي حاضرة حضورا مميزا عند خبراء الأمن والاستخبارات.

وإن الناظر في الأوضاع العربية اليوم ليلحظ بيسر أن التطرف كان الداء العضال الذي فتك بأمن ليبيا وتونس، حتى استحال هذان البلدان في حالة وهن وضعف مستمرين جراء الأفكار المتشددة والتناحر القبلي، من أجل تأكيد الذات وفرض الحقيقة المتوهَّمة التي خلخلت الأمن الداخلي وأثارت أطماع الأجنبي.وهي حالة من التطرف الديني لها أسبابها ومظاهرها التي تختلف من بلد إلى آخر والتي من الضروري تقصيها والحفر فيه، بل إنه من الأهمية بمكان التفكير في حلول ناجعة لدرء هذا الخطر المحدق بهذين البلدين.

ونروم من خلالهذه الورقة العلمية الحفر في ظاهرة التطرف الديني في المنطقة العربية،وتحديدا في تونس وليبيا لهتك حجبه، سعيا منا إلى الكشف عن أسباب التطرففي هذين البلدين ورصد مظاهره، محاولين اقتراح بعض السبل الناجعة للتصدي لهذه الظاهرة الخطيرة التي تقض المضاجع وتؤرق النفوس، مطيتنا في ذلك المنهج المقارني على فيه من صعوبات.فما مفهوم الإيديولوجيا؟ما حدّ التطرف؟ وماهي أسبابه؟ وفيم تتجلى مظاهره؟ وكيف السبيل إلى درء خطره؟

❶-مدخل اصطلاحي

• في حدّالإيديولوجيا(تاريخية المفهوم)

يبدو أنه من غير اليسير الظفر بمفهوم جامع مانع لمصطلح الإيديولوجيا لأن هذا المفهوم غير قار، إذ هو قد انفتح مجاله المفاهيمي على مقاربات متباينة، لذلك لا بد من تتبع استعمالات هذا المصطلح عبر مختلف الآثار التي ارتسم فيها لأن هذا المفهوم تطوّر تطوّرا ملحوظا واتسعت دائرته بين مختلف الحقول المعرفية.

وقد دلّ مصطلح الإيديولوجيا على علم الأفكار واستعملت اللفظة لأول مرة سنة1796 م[2]، ويعتبر الفرنسي أنطوان دستوت دي تراسي(Antoine Destutt de Tracy) أول من أرسى دعائم هذا المصطلح في كتابه الشهير "عناصر الإيديولوجيا" (Eléments d'idéologie) وكان ذلك سنة1825م.وقد عنى بذلك "أن يكون المصطلح مقابلا للعلم الذي يدرس الأفكار دراسة علمية بحته، باتباع قوانين علمية مضبوطة تنطلق من الملاحظة والتجربة لتصل إلى نتيجة محددة"[3].ويذكر العروي أن برنامج علم الأفكار إنما بني على "سؤالين، الأول تقليدي: كيف نبني فكرا سليما؟ والثاني مستحدث: كيف تؤثر في ذهننا الأفكار المجهولة الأصل. يهدف الأول إلى إصلاح المنطق والثاني إلى تحرير المجتمع من سلطة الموروث الذي لا يعرف له أصل عقلي"[4].

وكان ظهور هذا المصطلح بمثابة إعلان قطيعة على الفكر التقليدي الذي تسيطر عليه الكنيسة التي كانت تستغل نفوذها في تقديم صورة وهمية عن الحقيقة، وصورة نمطية عن الفكر من أجل السيطرة على عقل الفرد والمجتمع. وقد انتشر هذا المفهوم أثناء الثورة الفرنسية انتشارا واسعا، لكنه لقي صدّا من قبل نابليون بونابرت الذي صار يطلق على دي تراسي وأتباعه لقب الإيديولوجيين إمعانا في تحقيرهم عندما اصطدمت مصالحه وأفكاره التوسيعية بجماعة الإيديولوجيين التي يقودها دي تراسي ورفاقه، والداعية إلى القيام بإصلاحات جذرية في المؤسسة الاجتماعية بدءا بالتغيير الشامل لقطاع المدارس في فرنسا وخاصة لدى طلبة المعهد القومي حيث برامج العلوم الأخلاقية والسياسية.

بل إن بونابرت قد شن حربا ضروسا على دي تراسي وأنصاره لأن أفكاره كانت تشكل خطرا على السلطة والمجتمع، فأمعن في تحقير هذه الجماعة والاستخفاف بها.وحاصر مشروعهم بأن أمر بإعادة تنظيم المعهد القومي الفرنسي سنة 1802 و1803م، حتى أضحت الإيديولوجيا "مجرد نظام من المعقولية، قليل التماسك، يحلل الأفكار من منطلقات واهية، ويعجز عن الإتيان بأفعال تصنع التاريخ، وكشف المشروع الإيديولوجي عن قصوره في استيعاب الواقع وفهمه والإسهام في بناء صرحه وتكوينه"[5].وبذلك انهارت الإيديولوجيا إذ طغت عليها المثالية

والميتافيزيقا، فكان لا بد من انتظار المرحلة الماركسية التي سترد الاعتبار إلى الإيديولوجيا حينما اعتبرت أنها "تشكل جزءا عضويا في كل وحدة مجتمعية"[6]. بل إن ماركس اعتبر أن الإيديولوجيا هي "البنية الكلية ذات الطابع الذهني، المتسمة بالمعقولية التي ترسم شاكلة الفكر – الوعي حسب تموضعه في المجموعة الاجتماعية، فالطبقات تخلقها المادة المتحكمة في رسم حدودها وشرعنة أفكارها"[7].

ثم تولّى المفكر الفرنسي لويس ألتوسيير(Louis Althusser) التوسع في المقاربة الماركسية فعدّ الإيديولوجيا "تمثيلا للعلاقة القائمة بين الأفراد وظروف وجودهم الحقيقية"[8]، وأنها تتعلق بعلاقة المعاناة التي تربط الناس بعالمهم، فهو القائل: "الناس لا يعبرون في الإيديولوجيا عن علاقاتهم مع ظروف عيشهم، بل عن الكيفية التي يعيشون بها مع تلك الظروف. الإيديولوجيا هي التعبير عن علاقة الناس بعالمهم أي بوحدة تلتحم فيها علاقاتهم الحقيقية بظروف عيشهم مع علاقاتهم الوهمية بتلك الظروف. ففي الإيديولوجيا توضع العلاقة الحقيقية داخل العلاقة الوهمية، تلك العلاقة التي تعبر عن إرادة أو أمل أكثر ممّا تصف واقعا معينا"[9]. كما كان لعلم الاجتماع أيضا إسهام بيّن في محاصرة مفهوم الإيديولوجيا ذلك أن كارل منهايم حاول أن يتجاوز الماركسية التي اعتبرت أن البلوريتاريا تملك بمفردها القدرة على الفعالية في فضح الإيديولوجيا، فقرر أحقية كل طبقة اجتماعية في رؤية الحقائق الإنسانية وأن "لكل وضع تاريخي حقيقته الخاصة، وأنه ليس ثمة طبقة اجتماعية واحدة تحتكر لنفسها المعنى الكلي للحقيقة الإنسانية"[10].

وبذلك فتحت هذه الرؤية المجال لكل الطبقات لاستعمال إيديولوجيتها. كما فتحت المجال أيضا لدراسة الإيديولوجيا في علاقة تقابليةباليوتوبيا(utopie). ففي مؤلفه (الإيديولوجيا واليوتوبيا) أقر كارل منهايم أن الإيديولوجيا في الميدان السياسي مرتبطة بمصالح "الفئات التي تتصارع لتصل إلى السلطة السياسية، حيث ترى ذاتها حقيقة مطلقة ومنافستها غلطا وتدليسا"[11]، لأنها أبدا تحاول أن تحافظ على مصالحها الاقتصادية خلافا لليوتوبيا التي هي ضرب من "التوجه الذي يتجاوز الواقع، ويعمل في الوقت نفسه على تقويض مساراته"[12]، كما أنها "نوع من التفكير يتمحور حول تمثل المستقبل واستحضاره بطريقة مستمرة"[13].

باختصار لقد تباينت المقاربات الغربية في محاولة محاصرة مفهوم الإيديولوجيا الذي بدا عصيّا عن التحديد لذلك تطرّق العرب إلى هذا المفهوم لتوضيحه فكتب نديم البيطار تأليفه

"الإيديولوجيا الانقلابية"[14] وألف عبد الله العروي تصنيفه "الإيديولوجيا العربية المعاصرة"[15]، ولكن دون جدوى لأن توضيح هذا المفهوم بدا أكثر استفحالا عند العرب إذ هو مفهوم " مشكل وغير بريء" على حدّ تعبير العروي الذي التجأ في الأخير إلى تمييز ثلاثة مواقف تناولت مفهوم الإيديولوجيا:

-"موقف يضع فكره خارج نطاق، المفهوم وهو موقف أولئك الذين يفهمون الإيديولوجيا في معنى العقيدة أو الفلسفة أو الضمير.

-موقف من يقبل المفهوم بكل مضمناته.

-موقف من يستعمله كأداة تحليلية مجردة عن أي اختبار فلسفي"[16].

فمختصر القول إذن الإيديولوجيا مصطلح إشكالييحمل نظرة الإنسان إلى الأشياء المحيطة به وتصوّره للعالم الذي يعيش فيه، ولكن المهمّ أن هذا المفهوم كان وثيق الصلة بالسياسة مثلما هو موصول بالدين. إذ يجمع علماء الاجتماع والأنتروبولوجيا على أن الدين "هو النظير الفعلي للإيديولوجيا على مستوى الناحية العملية"[17]، فكلاهما يستهدف تقييم الواقع اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا وكلاهما يطمح إلى إعادة بناء المجتمع. بل إن "ظهور الإيديولوجيات ما كان ليحدث في ظل المجتمعات الزراعية السابقة على الثورة الصناعية، نظرا لأن الدين والتقاليد كانا يقومان بوظيفة مماثلة لما أصبحت الإيديولوجيا تقوم به فيما بعد"[18].

وتختلف الإيديولوجيا عن الدين في النقاط التالية[19]:

الدين	الإيديولوجيا
-يلامس الدين حياة الفرد الفعلية ويقدم له رؤية غيبية علوية مرتبطة بعلاقة الإنسان بالله والكون.	-تغيب هذه الوصفة ويهيمن على الإيديولوجيا الصراع الاجتماعي والطبقي في حقبة تاريخية معينة.
-قيم الدين مستمدة من نص علوي مقدس.	-قيم الإيديولوجيا مستمدة من التجربة والمبادئ المتصلة بالواقع وحركة التاريخ.

-معتنقو الدين ليسوا في حاجة إلى تبرير معتقدهم.	-معتنقو الإيديولوجيا يحتاجون إلى تبرير شرعية معتقدهم عن طريق الرجوع إلى الواقع الاجتماعي.

ورغم هذا الاختلاف فإن الرأي الذي نستقر عليه أن الإيديولوجيا تعمل على الهيمنة على الأفراد من أجل تثبيت قيمها، فيحتويهم وهم الحرية المطلقة في الحياة وفي اتخاذ القرارات وفي امتلاك الحقيقة المطلقة المزعومة،حتى يضحى هذا التحرك تطرّفا وتشددا ووعيا لا حدود له. بل إن هذا التطرف من أجل فرض الرأي والسيادة ليس إلا سلوكا إيديولوجيا.

- **في حدّ التطرف:**

يبدو أن مصطلح التطرف من أكثر الألفاظ تداولا بين الناس،تلوكه الألسنة في المنابر والخطابات وتصدح به الكتب، ولكنه في حقيقته كلمة غامضة مازالت تحتاج إلى التوضيح، وذلك لسببين: أولهما انعدام وجود هذه الكلمة في المعاجم العربية على الرغم من وجود الجذر (ط.ر.ف.)، وثانيهما التباس هذا المفهوم بمفاهيم مجاورة له من قبيل الغلو والتعصب والتنطع والتكفير والإرهاب. لذلك فإنه من الأهمية بمكان أن نقف عند حدود هذا المصطلح عسى أن نرفع الغموض الحاصل في الحقل الدلالي لمفهوم التطرف وما تناسل حوله من مصطلحات تتقارب من حيث الدلالة أو تبعد.

فالتطرف في (لسان العرب) مصدر من (طرَف) بمعنى "لحظ وقيل حرّك شفره ونظر"، و"طرف كل شيء منتهاه" و"رجل طِرف ومتطرف: لا يثبت على أمر"[20]، أمّا في (معجم مقاييس اللغة) فالطرف "يدور حول معنيين اثنين: "الأول يدل على حدّ الشيء وحرفه، والثاني يدل على حركة بعض الأعضاء"[21]. وجاء في (المعجم الوسيط) "تطرف: أتى الطرف، ويقال تطرفت الشمس دنت إلى الغروب، وتطرف في كذا: جاوز حدّ الاعتدال ولم يتوسط"[22].

ويستشف من هذا أن التطرف في مظانه المعجمية العربية هو الوقوف في الطرف، وهو المغالاة والبعد عن الجادة والوسط، وإذن فهو خلاف التوسط. أمّا في المعاجم الأجنبية فيذكر ألبير بروتون(Albert Breton)أن القواميس الفرنسية والألمانية والإيطالية تعرف التطرف بأنه الإفراط، على حين تعرفه القواميس الإنجليزية بأنه عنف الوسائل المتبناة"[23].

أمّا اصطلاحا فيبدو التطرف ملتبسا لأنه وثيق الصلة بمفاهيم مجاورة كالغلو وهو "التجاوز لقدر ما يجب، والغلو في الدين التشدد فيه ومجاوزة الحدّ"[24]، وكالتنطع وهو التعمق في الكلام والتشدق فيه،فالمتنطّعون "هم المتعمّقون المغالون في الكلام، الذين يتكلّمون بأقصى حلوقهم تكبّرا"[25]، والتطرف أيضا موصول بمفهوم التعصّب وهو "المحاماة والمدافعة"[26] وهو أيضا "من العصبية والعصبية أن يدعو الرجلَ إلى نصرة عصبته والتألب معهم على من يناوئهم ظالمين كانوا أو مظلومين"[27] والتعصب أيضا الاجتماع فيقال "تعصّبوا عليهم إذا تجمّعوا فإذا تجمعوا على فريق آخر قيل تعصّبوا"[28]. وهو اصطلاحا "غلوّ في التعلق بشخص أو فكرة أو مبدإ أو عقيدة بحيث لا يدع مكانا للتسامح وقد يؤدي إلى العنف والاستماتة"[29].وعليه فالتعصب ضرب من التصلب الفكري وهو "تشكيل رأي دون أخذ وقت كاف أو عناية للحكم عليه بإنصاف، وقد يكون هذا الرأي إيجابيا أو سلبيا، ويتم اعتناقه دون اعتبار للدلائل المتاحة"[30]. وقد يتصل التطرف أيضا بالإرهاب وهو مصدر من أرهب "فلانا أي خوّفه وفزعه"[31]، وهومفهوم إشكالي إذ تعددت التعريفات لأنه مفهوم توصيفي وذهب البعض إلى تعريفه بكونه "الاستخدام المتعمد للعنف أو التهديد المتعمد بالعنف لبث مشاعر الخوف، بهدف إجبار أو ترويع الحكومات أو المجتمعات"[32].

صفوة القول إذن إن التطرف مفهوم تيّاه صلف، لا يمكن محاصرته لالتباسه بمفاهيم مجاورة كالغلو والتنطع والتعصب والإرهاب. ثم إنه توصيف يخضع للحكم الذاتي فما قد يعتبره مجتمع ما تطرفا قد لا يعدّه مجتمع آخر كذلك. والأهم من ذلك أن هذا المفهوم اتصل بالدين، ولكننا نعدم وجوده في النصوص الدينية التأسيسية عهدا قديما وعهدا جديدا وقرآنا كريما. ورغم ذلك يظل التطرف لا دين له ولا هوية، عرفته كل أغلب الحضارات والشعوب على مرّ التاريخ، وأذكته طريقة فهم الدين والتدين، حتّى أضحى ظاهرة خطيرة تهدّد أمن الشعوب واستقرارها وخاصة ليبيا وتونس. إذ يبدو أنّ لهذه الظاهرة أسبابها العميقة التي من الضروري الحفر فيها لأننا "إذا استطعنا فهم أسباب التطرف ربما استطعنا أن نكون أكثر فاعلية في مواجهة التطرف" على حد تعبير برجر(Birger). فماهي دواعي التطرف؟

❷-أسباب التطرف

لا شك أن التطرف لا ينفرد به شعب دون سواه ولا طائفة دون غيرها، إذ عرفته كل الشعوب وكل الملل والنحل على اختلاف مشاربها، حتى أضحى معضلة أرّقت الكثير من الحكومات في الدول

العربية لاسيّما منها تونس وليبيا. فالمتدبر في أوضاع هذين البلدين يلحظ دون كبير عناء أن هذا الداء قد نخر جسميهما، وهو لعمري من أخطر الأمراض وأشدها فتكا لأنه ينبئ بتحوّل في الهوية من "هوية مبدعة تبحث عن سبل الحياة إلى هوية قاتلة تجلب الدمار والخراب"[33]. بل هو معضلة تشي بوجود خلل في البناء الثقافي للمجتمع وفي القيم والمبادئ التي تحكم الإنسانية. وهو خلل يمكن أن نرجعه إلى أسباب نفسية وأسباب اقتصادية وأسباب تربوية كما يمكن أن نرده أيضا إلى عوامل عقدية دينية وأخرى سياسية.

♦2-1-الأسباب النفسية والاجتماعية

•فقدان الإحاطة الأسرية: تلعب الأسرة دورا مهمّا في حياة الإنسان، إذ هي الفضاء الأول الذي ينشأ فيه المرء نشأة سليمة متوازنة في كنف الحب والمودة والعطف، إذا كانت الأسرة قادرة على حسن الإحاطة بالأبناء، أمّا إذا فشلت في إشباع الحاجات النفسية للأبناء فإنّ الانحراف والتطرف سيكون ملاذهم لا شك. والملاحظ أن تطرف الأبناء سواء في الأسرة التونسية أو الأسرة الليبية إنّما مرده ما تعانيه هذه الخلية من مشاكل وتفكك ناجم عن سوء معاملة الآباء للابن، إما باضطهاده نفسيا وذلك بنبذه نبذا صريحا أو خفيا بالقول أو بالفعل كالسخرية منه وتحقيره وتجاهله وإيثار إخوته عليه وطرده من البيت أحيانا، فتكون "النتيجة المحتومة لهذه المعاملة من والديه فقدان الشعور بالأمن وروح العدوان والرغبة في الانتقام"[34]، ولا انتقام إلا بهجر الأسرة بحثا عن فضاء آخر بديل يحويه، فتكون الجماعات المتطرفة خير حضن يأويه.

حضن يأويه. وقد يكون الاضطهاد بدنيا حين يعمد الآباء إلى العنف الجسدي، فيمارسون العقاب البدني على أبنائهم بقسوة إمّا بالضرب أو التعنيف الشديد وإلحاق الأذى بأجسادهم بغية ترهيبهم وتقييد حريتهم، لأن الآباء يتوهمون أن ملكية القوة قد تكون خير بديل في ظل انعدام الطرائق الفعالة للتربية. وينجم عن ذلك التطرف تمرد الأبناء على هذه السلطة الرمز ومخالفتهم للحدود التي رسمها الآباء رغبة في الانعتاق والتنفيس عن المكبوت بين جوانحهم.

وقد يكون تطرف الأبناء سببه أيضا عدم تكيف الأبناء مع التفكك الحاصل داخل الأسرة جرّاء كثرة الخلافات بين الأزواج وارتفاع نسب الطلاق التي لها تأثير بالغ على نفسية الشاب "حيث اتضح أن المراهقين الذين يعانون من مشكلة سوء التكيف الشخصي ينحدرون من أسر تعرضت للتفكك نتيجة الطلاق"[35]، ممّا يورث الأبناء الشعور بالوحدة النفسية والاكتئاب

بسبب انعدام السند المعنوي، فيدفعهم ذلك إلى عدم الرضا على النفس وعدم احترام الوالدين أو ربما هجرهما ليكون السلوك المتطرف ملاذهما.

- نبذ المجتمع للفرد: قد يضيق الشاب ذرعا بوضعه الأسري المتصدّع، فيلوذ بالفرار إلى الشارع متوهّما أن المجتمع قد يكون الحضن الدافئ الذي إليه يهرع، لكنه عبثا يحاول إذ سرعان ما يصده المجتمع بقسوة. ونلحظ ذلك خاصة في الأوساط المدرسية ذلك أن الحدث قد ترفضه المدرسة وقد يرفضه الرفاق إمّا بالسخرية منه أو تحقيره أو بقطع التواصل معه، فيعيش المراهق جراء تصرفات الأقران في عزلة قد تعمق بداخله مشاعر التوتر والقلق والشعور بالحرمان ويعتمل بداخله صراع حاد في سبيل تحقيق رغباته المكبوتة، وهو صراع قد يقوده بالتدرج إلى الانزواء والتطفل على الجانحين مثله بل على الانحراف والانتماء إلى العصابات المتطرفة التي قد تشبع نهمه العاطفي الذي فقده داخل الأسرة.
- تنامي العصبية القبلية والعشائرية داخل الأسرة: قد لا تبدو هذه الظاهرة بيّنة في المجتمع التونسي، لكنها الظاهرة البارزة للعيان وبشكل لافت للانتباه في المجتمع الليبي. ذلك أن هذا المجتمع نشأ على حب القبيلة التي تمثل "شكلا من أشكال المجتمع، يتكون عندما يتحد ويتضامن رجال ونساء يعتبرون أنفسهم أقرباء على أساس حقيقي أو افتراضي عبر التناسل والمصاهرة، من أجل السيطرة على مجال ترابي محدد، وتملك موارده التي يستغلونها بصفة مشتركة أو خاصة مع الاستعداد للدفاع عنها بالسلاح. والقبيلة تحمل دائما اسما خاصا تعرف به"[36]. وعليه إذن فالقبيلة شكلت جزءا لا يتجزأ من المشهد الاجتماعي والسياسي في ليبيا لأنها كانت تمثل إحدى دعائم النظام السياسي في عهد القذافي مثلما كان الأمر في ليبيا زمن حكم الملك إدريس (1951-1969) وخلال حكم أسلافه في الحقبتين العثمانية والاستعمارية[37].

ويبدو أن النعرة القبلية قد احتدت جذوتها خصوصا بعد ثورة الربيع العربي، ذلك أن الليبي رأى في القبيلة موطنه الذي يجب الذود عنه والتغني بانتصاراته ومآثره، بل لا هوية في نظره إلا في أسرته وأبناء عمومته وعشيرته، ولهذا فإن مشاعره تجاه قبيلته تكون من القوة بحيث تصل إلى حدّ العنف، وقد دفعت هذه المشاعر الشباب الليبي إلى حب قبيلة وكره ما سواها.

وقد يتحوّل تعلق الفرد بقبيلته إلى شعور بالتعالي والفوقية وازدراء الآخرين حتى استحالت تلك العصبية حالة مرضية استغل فيها الدين وحرف وشوه بغرض نصرة العرق أو القومية، وليس أدل على ذلك ممّا وقع من هجوم على بني وليد ونهب وحرق للممتلكات العامة وما وقع في منطقة

سهل الجفارة وما حصل أيضا في ودرنة حيث أعلن عن قيام إمارة إسلامية[38].بل إنّ هذا التطرف الديني سمح لبعض التنظيمات الإرهابية بالتسلل إلى أرض ليبيا حيث انتصبت "داعش" فزادت "من وتيرة ارتكاب بعض الجرائم الإنسانية في الإبادة الجماعية واحتلال جزء من الأراضي الليبية"[39].

♦ 2-2-الأسباب الاقتصادية

• الفقر والخصاصة: يلحظ المتتبع للأوضاع المجتمعية في تونس وليبيا أن الفقر هو من أهمّ التحديات التي تواجهها الأسرة، ذلك أنّ الخصاصة التي اجتاحت بعض المناطق المهمّشة في جنوب البلاد التونسية ووسطها وبعض المناطق النائية في ليبيا قد شكّلت خطرا يهدد أمن الأسر واستقرار المجتمع. فتدهور الأوضاع المعيشية قد دفع بالشباب إلى التسوّل والتشرد، وأمام الإحساس بالضياع وفقدان الأمل في الحياة وانسداد الأفق، اضطر هؤلاء الشباب إلى الانعزال والتمرد وتبني أفكار هدامة تعكس نقمة على الوضع السائد، بل ربّما التجأت هذه الزمرة من الشباب إلى فئات متطرفة قد تستقطبهم من أجل تجنيدهم وتوجيههم نحو الفكر المتطرف العنيف.

• البطالة والفراغ: تعتبر البطالة من أهم المشاكل التي تعاني منها كثير من دول العالم الثالث، وهي من أبرز التحديات التي تواجهها تونس وليبيا، إذ هي المشكلة التي تهدد استقرار هذين البلدين بامتياز. ويبدو أن نسبة البطالة فيهما صارت في تزايد خصوصا بعد اندلاع ثورات الربيع العربي. بل هي ظاهرة أسبابها واحدة في كلا البلدين، فمن البين أن هذه المشكلة مردها فشل البرامج التنموية في العناية بالجانب الاجتماعي وتراجع القوانين المحفزة على الاستثمار وقصور الدولة عن إيجاد فرص عمل للشباب، إضافة إلى استغناء الدولة عن خدمات العاملين في ظل برامج الخصخصة التي تستجيب لمتطلبات صندوق النقد الدولي.

ولكنّ البطالة تبدو مشكلة خطيرة لأنها تعمق الشعور بالفراغ لدى الشباب والضغط الذي إن استمر سيولد لديهم حالة من التوتر والضيق والانفعال والقلق وعدم الشعور بالأمان. وهذا ما سيقودهم إلى حالة من عدم التوافق الاجتماعي، ينجم عنها اضطراب في العلاقة بين الفرد والمجتمع. إذ يتملك الشباب شعور بالرفض والعداوة للأنظمة القائمة، فيعلنون تمردهم عليها وعدم الامتثال لها، وينتابهم شعور بالاكتئاب وبالرغبة في الانعزال والانكفاء على الذات. وذاك

ما يؤدي إلى ارتكاب الجرائم والتطرف وذلك بالانحراف نحو الجماعات الإرهابية التي تعمق الشعور باليأس عند الشباب، وتدفعهم إلى أعمال بطولية واستشهادية خدمة لله والدين.

فيندفع الشباب اليائس إلى أيدى هذه الجماعات التي تغدق عليهم الأموال، وتقنعهم بالجنة الموعودة وحوريها، وأن الاستشهاد جهاد في سبيل الله، لذلك لا يجد الشباب غضاضة في القتل والتخريب ما دام ذلك سيسدّ حاجتهم. ثم إنه "تحت وطأة البطالة ينهار البناء القيمي للمجتمع، وتتفكك الإنجازات الأمنية وتتحوّل أعداد غفيرة إلى الرغبة في التدمير، وتكثر المخاطر والاعتداءات على الممتلكات"[40]، بل إنّ بعض الشباب يندفع متهوّرا إلى الانضمام إلى تنظيمات إرهابية مثل "بوكو حرام" و"داعش" و"القاعدة" وغيرها، وهي جماعات تحاول أن تستقطب الشباب إليها موهمة إيّاهم بحقّهم في العمل وحقّهم في توزيع عادل للثروات.

♦ 2-3-الأسباب التربوية:

ويمكن أن نقتصر فيها على سبب وحيد هو ضعف المستوى التعليمي، ذلك أن المتدبر في الواقع التعليمي بالمؤسسات التربوية والتعليمية في ليبيا وتونس يلحظ أنه واقع متردّ، لأن أساليب التعليم فيه مازالت مغرقة في النبش في الماضي، ومازال أسلوب الحفظ الثقيل الذي كبّل العقل البشري فحال دون إبداعه، جاثما بثقله على الطرائق التعليمية. إضافة إلى أن المؤسسة التعليمية أضحت في تراجع إذ ما عادت فضاء يحمي التلميذ أو الطالب من التطرف، وذلك لتهاون المربّين عن دورهم في تحصين الناشئة من الفكر المتشدد. إذ سرعان ما تكون هذه النخبة لقمة سائغة في أفواه الجماعات الإرهابية، التي تسعى إلى احتضانها وبرمجتها لتحقيق أهدافها الدنيئة باسم الدين.

♦ 2-4- الأسباب العقدية:

وهي أسباب يمكن حصرها في النقاط التالية:

سوء فهم النص الديني التأسيسي: فمن الواضح أن فهم نص القرآن وتأويله هو من أكبر المعضلات الفكرية التي واجهت العقل العربي والإسلامي عموما لأن "الخطاب القرآني كلام تتسع معانيه، وتتعدد وجوه دلالاته، ولا يمكن لأحد أن يقبض عليه أو يفوز بحقيقته"[41]. إنه نص الاختلاف والمغايرة بامتياز لذلك كثر الجدال حوله، وتعددت المواقف إزاءه "فتمّ استقطاب عناصر ارتضتها الجماعة المفسرة في مقابل إقصاء مالم يكن متناسبا مع الرؤى المجتمعية

والسياسية والعقدية، أي مع اختيارات أمست في دائرة ما يسمّى بالتأويل الفاسد وغير الصحيح"[42].

ويبدو أن مأزق تأويل هذا النص التأسيسي ازداد حدّة منذ اندلاع ثورات الربيع العربي، ذلك أن هذا النص أصبح في كل من تونس وليبيا مطية فئة ادعت لنفسها امتلاك الحقيقة المطلقة، فانبرت تؤول آي القرآن بحسب أهوائها وأقصت الآخر المغاير لها وعمّقت هوّة الاختلاف. بل إنها أغرت عددا غفيرا من الشباب إلى اتباع نهجها، فكان ذلك مدعاة إلى التطرف والمجادلة والمنازعة التي "تحمل على التعصب والتحزّب وتورث العداوة والبغضاء"[43]. وانبرى هؤلاء الشباب يخوضون في آيات الجهاد[44]ويتكأون عليها كالتنظيمات الإرهابية لتبرير أفعال القتل وسفك الدماء وإزهاق الأرواح، فتحوّل الجهاد عندهم من صدّ للعدوان وحرص على تأمين المجتمع إلى شهوة نفسية للقتل والتسلط وتوهم الزعامة.

الجهل بالدين:يبدو أن أكبر معضلة يواجهها الشباب الليبي والشباب التونسي هي فهم الدين. إذ من الواضح أن الأزمة إنّما تكمن في الجهل بجوهر الإسلام قيما وسلوكا وفي "سوء فهم تعاليم الدين والتطرف في تطبيقها والتشدّد في ممارستها"[45]. بل إنّ المشكل الأكبر إنّما يتصل بسوء التفرقة بين الدين بوصفه وحيا وكلاما إلهيا، والمعرفة الدينية المتعلقة بقراءة النص الديني التأسيسي وكنه معانيه. إذ نص الوحي الإسلامي إنّما هو نص صامت لا يبين عن معانيه إلا إذا استنطقناه بأدواتنا المعرفية النسبية. ولا يمكن بأيّ حال التسوية بين نص مقدس متعال وبين قارئ مرتهن للنسبية. فأزمة المتطرّف إنّما تتمثل في رفضه التعامل مع هذا النص المقدس بطرائق حديثة تتعقل النص، فتحفر في خفاياه مستجيبة بذلك لمتطلبات العصر.

لذلك ينبرى المتطرّف قارئا لنص القرآن الكريم قراءة انتقائية، تتماشى وأهواءه الذاتية وأفق تفكيره الضيق، فيتخير من آياته ما تعلق مضمونها بالجهاد مثلا، من ذلك الآية التسعين بعد المائتين من سورة البقرة والتي جاء فيها قوله:" وَقَاتِلوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ، وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ ٱللهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ"[46]، ويحاول المتطرف أن يقنع نفسه بأن القتل والجهاد في سبيل الله واجب يفرضه الدين. وقد يتعلق المتطرف بالحديث النبوي كالحديث الذي رواه أبو هريرة نقلا عن الرسول صلى الله عليه وسلم ونصّه الآتي:" أمرت أن أقاتل الناس حتّى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه وحسابه على الله". فيتخذ المتطرف

هذا الحديث ليشرع لنفسه قتل الكافر من أجل إدخاله في الدين أو إكراهه على اعتناق الدين ولو بقتله.

توهّم الزعامة: تدفع نزعة التشدد المتطرف إلى نبذ الآخر واستبعاده لأنه يتوهم امتلاك الحقيقة المطلقة، فينصّب نفسه زعيما عليها ولسان حالها، لأن الحقيقة إنما هي ممارسة للذات وهي "انخراط في العالم، وانفتاح على الكون، ونسج علاقة بالوجود يحقق من خلالها الإنسان ذاته بأنماط وإيقاعات مختلفة"[47].

وتوهّم الزعامة واحتكار قول الحقيقة يذكيه تأثر المتطرف بالعناصر القيادية للفكر المتشدّد، ذلك أن المتطرّف ينحرف عن معايير العدالة والوسطية في فهم الدين، فيظل أسير وسواس الفرقة الناجية ووسواس "الصراطات المستقيمة"[48] المتعددة على حدّ تعبير سروش، هذه الصراطات التي تحتكر كل واحدة منها قول الحقيقة وفهم الإسلام فهما صحيحا. لذلك تتعطل فعالية العقل عند المتطرف إذ الأمر في منطق المتعصب منته، وهو قد حسم في أجوبته حسما قاطعا. بل إنّ المتطرّف يمسي متبعا ملة هذه القيادات، منبهرا بفكرها، مواليا لتفاسيرها للقرآن. باختصار إنه صورة "للمسلم المقلوب الذي يعاني من الولاء لتفسير القرآن لا لنص القرآن، مناصرا المذهب المالكي والشافعي ..ويتناسى الإشكاليات التي تحاصره اليوم"[49] على حدّ تعبير عز الدين عناية.

التأثر بالرموز الدينية والشخصيات التراثية: قد يدفع الغلو المتطرف إلى الانقياد وراء بعض الشخصيات الدينية، فتلفيه متلهفا على الاطلاع على كتابات بعض القيادات الدينية متخذا من نصوصها سراجا به يستنير، ومن قياداتها أسوة بها يقتدي. فترتقي أسماء أبي الأعلى المودودي وحسن البنا والخميني وغيرهم كثير إلى مصاف الشخصيات الصنمية المقدسة، بل إن نصوصها في نظر المتطرف تكاد تناهز نص القرآن الكريم قداسة ورفعة، حتى أنها لا تحتمل الخطأ ولا تقبل المناقشة. ولا شكّ أنّ المتطرّف لا يقتدي بهذه الرموز الدينية إلّا وهو واقع تحت تأثير الجماعات المتطرفة التي إليها ينضوي والتي "تعطي كلام البشر ضربا من القداسة، قد يصل لدى بعض عناصرها إلى مساواة قدسية لكلام الخالق، كوسيلة للسيطرة على عقول(الشباب) والتسليم المطلق برأي مرشدهم. فكلام علماء العقيدة أو حتى علم الكلام وبعض المحسوبين على الدعوة من بين المتخصصين أو كلام بعض كتاب التاريخ والسير يرقى عند بعض أصحاب

الفكر المتطرف إلى درجة النص القرآني"[50]. لذلك سرعان ما يقع الشاب المتطرف فريسة لهذه الجماعات التي يعتقد في فكرها فتستحيل أشبه بالأصنام الوثينية التي يتعبدها.

♦ 2-5- الأسباب السياسية:

وتتجلى خاصة في غياب الديموقراطية واحتكار نخبة السلطة، لذلك فإن أزمة مشاركة الشباب في الحياة السياسية سواء في تونس أو ليبيا مازالت قائمة. فالنخب السياسية لا تتيح الفرص الحقيقية لإشراك الشباب في الحياة السياسية أو إدلائهم بأصواتهم في الانتخابات ظنّا منهم أن هذه الأصوات لا تؤثر ولا قيمة لها في توجيه مسار العمل السياسي في البلاد. ولاشكّ أن إقصاء الشباب عن العملية السياسية وإبعادهم عن المشهد السياسي، سيولد في أنفسهم السلبية والشعور بالعجز والإحباط وربّما كراهية جهاز السلطة والنفور منه، والانحراف نحو الجماعات الإرهابية التي ستستغل وضعهم بأن تستقطبهم لتوهمهم أن السلطة طاغوت، وان لا حلّ إلّا في تأسيس إمارة إسلامية تضمن لهم حقوقهم.

❸ مظاهر التطرف

وهي عديدة نجملها في العناصر التالية:

-التعصب للرأي: يعتبر التعصب للرأي أهمّ سمة مميزة لشخصية المتطرّف. والتعصّب في أصل معناه هو "الانحياز التحزّبي إلى شيء من الأشياء فكرة أو مبدأ أو معتقد أو شخص إمّا مع أو ضدّ، والتعصّب للشيء هو مساندته ومؤازرته والدفاع عنه، والتعصب ضد الشيء هو مقاومته"[51]. ونروم بالتعصب ههنا "اعتناق الفرد لرأي من الآراء وتمسكه به ودفاعه عنه، ودعوته إليه بحماسة عمياء تصل به إلى حدّ فرضه قسرا ومنع ما يخالفه قهرا"[52]. ذلك أن المتطرّف يرى في نفسه مالكا للحقيقة وهو خارج النقد بل هو في مرحلة الاصطفاء والعصمة لذلك يمعن في التشبث برأيه وفرضه على الآخرين إمّا اعتناقا أو اقتناعا. وهو يرفض مناقشة رأيه لأنّ قناعته "راسخة صلبة جامدة لا تقيّدها المناقشة إلّا من حيث هي مناسبة لطرحها كحقيقة ثابتة"[53].

ففكر المتطرف فكر منغلق لا يسمح بتقبل الرأي المخالف، وهو يدّعي المثالية التي تحمل أدران النرجسية الموهمة إيّاه "بأنه الوحيد الذي يكون دائما على حق والإيمان بالقدرة الكلية لفكرته، فبفضلها سيتوصل إلى تغيير العالم سحريا وإلى اجتلاب الفردوس، وأخيرا نجد لدية فكرة إسقاطية تريحه من كل شبهات الضعف والقصور البشري"[54]. بل إنّ هذه النرجسية قد تدفع

المتطرف إلى تأكيد هذا الشعور بالانتماء إلى جماعة معينة يعتز بها ويعتبرها خير ظهير له فيتملّكه "حماس ترجسي وتمجيد لفكرة الانتماء إلى هذه الجماعة ممن اصطفاهم الأزل أو التاريخ"[55].

-تكفير الآخر: قد يدفع الانغلاق الفكري المتطرف إلى نبذ الآخر، ظنّا منه أن له كل القوة والسلطان وكل أشكال التفوق على الآخرين، فيقصي الآخر و"يقذف به إلى دائرة المغايرة المطلقة، ويؤكد بالتالي على اختلافه الوحشي عنه والاختلاف الوحشي تنافر وتنابذ، وتنازع وتقاتل"[56].ويكتسي سلوك المتطرف طابعا من الغلظة والخشونة تدفعه إلى تكفير الآخر ووصمه بأبشع النعوت على اعتبار أنه رمز للضلال والجهل واتباع الهوى فيستوي التطرف "نوعا من الهدم السلبي، وهو الهدم الذي ينبني على الانقضاض على الآخر، لا لشيء إلا لأنه آخر دون إقامة أطر حضارية تواصلية معه، وهذا يفسر رغبة المتطرف في تسفيه الآخر، وربّما إزهاق روحه دون أن يشعر بأي ألم من ضمير أو إنسانية"[57].

-استعمال العنف: يعتبر العنف رافدا مهما من روافد التطرف. إذ يلجأ المتطرف إلى العنف لتعزيز خطابه الفكري[58]، وبدافع نرجسيته العمياء، فهو لا يؤمن بتعدد الآراء، ويرفض التحاور مع الآخر والتعايش معه لأن "عقله المغلق يمنعه من التواصل مع الآخر أو التحاور معه .. فهو يتنفس كرها على الآخر وحقدا عليه، ومن ثم فهو لا يستطيع بحال الخروج من هذا الجو الفكري المقيت، ومن ثم فهو لا يتصوّر نفسه بعيدا عنه أو يعيش بمنأى عنه"[59]. بل إنه لا يبطن أدنى استعداد لتغيير أفكاره التي قد تتحول إلى سلوك هدّام، حين يلتجئ المتطرّف إلى العنف، لأنه لغة التخاطب الممكنة في نظره، لمّا عجز عن إقناع الآخر، وفشل في إثبات قناعاته الشخصية، وفي الاعتراف به كيانا وقيمة.

وعليه إذن فالعنف إكراه غير قانوني، ووسيلة من وسائل الضغط على إرادة الأخر لأنه مختلف و"كل اختلاف حسب وجهة نظر المتعصب، يضع الآخر في خانة الارتياب، وسيكون غريبا وكل غريب أجنبي، وبالتالي فهو مريب، بمعنى هو غير ما يكون عليه المتطرف"[60]. لذلك تعمد هذه الشخصية إلى إلحاق الأذى بالآخر بدنيا أو ماديا، وقد ينقلب هذا العنف إلى إرهاب إذا ما فقدت شخصية المتطرّف توازنها وهويّتها، فتلقفتها يد الإرهاب لتغذي فيها العنف وتروي غلتها إليه.

❹ طرائق التصدّي للتطرف

لقد اتضح لنا ونحن نحفر في ظاهرة التطرف الديني في كل من تونس وليبيا لنستجلي أسبابها ونتقصى مظاهرها أنها ظاهرة خطيرة، إذ هي البوابة الواسعة التي سينفذ منها الإرهاب، لأن

الجماعات الإرهابية ستتحين فرص انحراف الشباب وتطرّفهم لتعمق كراهيتهم للوضع السائد في بلدهم، فتستقطبهم موهمة إياهم بتثبيت واقع بديل باسم الدين. لذلك يغدو من الضروري التفكير في وسائل ناجعة لدرء هذا الخطر قبل استفحاله ولعلّ من أهمّ هذه الوسائل نذكر:

-احتضان الشباب واحتوائهم: ولا يكون ذلك إلا بتفهم مشاكلهم، ويعتبر التشغيل من أبرز التحديات التي يواجهها الشباب سواء في تونس أو ليبيا، وإنه لمن الضروري أن تهتم السلط المعنية بهذا المشكل، فتفكر في حلول ناجعة لتلافي مخاطره، لأن ترك الشاب بلا عمل لفترة مطوّلة قد يشعره "بالضياع واليأس والبؤس والسخط على نفسه وأسرته والمجتمع برمته، مما يدفعه لشغل وقته بأي عمل آخر لإثبات ذاته فيه، ومن ثم ينضم للجماعات المنظمة"[61].ولعلّ من أهم الحلول توفير مواطن الشغل لهذه الفئة المجتمعية بالتشجيع على المشاريع الصغرى والمتوسطة وإشراكهم فيها، وتمكينهم من تكوين في الحرف والصناعات، وتوعيتهم بقيمتهم طاقة بشرية هائلة يمكن أن تسهم إسهاما فعالا في النهوض بالاقتصاد والتنمية دون تمييز بين الذكر والأنثى أو الشمال والجنوب.

ثم إنّه من المهمّ أيضا إشراك الشباب في صنع القرار السياسي، لأن هذه العملية هي الأكثر قدرة على دمج الشباب في الشأن العام للبلاد، وعلى تعزيز قيم المواطنة والمسؤولية المجتمعية، إضافة إلى حمايتهم من الانحراف نحو الجماعات المتطرفة. وإن هذا الأمر ليغدو ضرورة ملحة، خصوصا وأنه تبين أن مشاركة الشباب الليبي أو الشباب التونسي في المشهد السياسي متعثرة ومحتشمة رغم اندفاع شباب دول الربيع العربي للمشاركة في المسار السياسي والتحوّل الديموقراطي بكل حماس.

-إصلاح النظام التربوي: يبدو أن النظام التربوي والتعليمي عموما سواء في تونس أو ليبيا نظام هش مثلما أسلفنا القول، لذلك حريّ بالسلط أن تراجع هذا النظام وتعتني به لأنه مهمّ في دعم الاستقرار داخل الوطن وفي حماية الناشئة من التطرف والانحراف، إذ هو نظام قادر على خلق التجانس بين أفراد المجتمع الواحد فالتربية "تعزز هذا التجانس وتكرسه، وهي تسعى قبل كل شيء إلى تكريس عناصر التشابه الأساسية في نفوس الأطفال، وهو التجانس الذي تقتضيه طبيعة الحياة الاجتماعية"[62]. وعليه إذن لا بدّ لهذا النظام أن يعزز مفهوم الهوية الوطنية وذلك بتثبيت قيم الوطنية وحبّ الوطن والذود عن مكاسبه في البرامج التعليمية التي يحرص المربي على تبليغها. بل إنه يعول عليه في تربية الناشئة على حسن الحوار والجدال واحترام الرأي

المخالف، لأن ذلك من شأنه أن يمنع التعصب ويقي الشباب العنف والتطرف. كما أن المربي مدعوّ أيضا إلى تعديل أفكار الناشئة المنحرفة وتفنيدها وإيضاح خطرها. فهو على هذا النحو الحصن المنيع من المذاهب الهدامة التي تسعى إلى تقويض الأمن والاستقرار في الوطن.

كما يحسن بالمربي أيضا أن يستعيض في تدريسه عن الطريقة التلقينية العقيمة لأنها تسهم في جمود الفكر وإقصاء الطرف المتقبل وقمعه من أجل تقبل الحقيقة التي يتوهمها المربي. وهي تسهم بذلك في إذكاء نزعة التطرف لدى المتعلم والتعصب لرأيه. كما أنه يغدو من المهمّ أيضا مراجعة المهارات المعرفية المكتسبة وخاصة في مادة التربية الإسلامية. فليبيا محتاجة إلى "منهج شرعي تربوي يجمع ولا يفرق فيه الرأي والرأي الآخر، ليس فيه إقصاء لأحد يرغب في التعلم من أجل مصلحة الدين والوطن"[63]، وكذا الشأن بالنسبة إلى تونس.

وما أحوجنا اليوم إلى تغيير طريقة الحفظ والتلقين والتكرار والترهيب والترغيب في تلقي مادة التربية الإسلامية لأنها تسهم بشكل أساسي في إذكاء الفكر المتطرف والتعصب، وإذن لا بدّ من "الخروج بالمتعلمين من إطار إثارة الخيال والعواطف إلى مجال ما هو قابل للعقل، أي ما يمكن أن يتقاسمه كل الناس على اختلاف نوازعهم. فنخرج بالأخلاق الكلاسيكية إلى التربية المدنية وأخلاقيات التبادل، حيث يتمّ تحويل الجانب العملي التعاملي في الدين إلى ثقافة اجتماعية، والتحول من أخلاقيات الجماعة المؤمنة إلى أخلاقيات المجتمع المتحضر"[64].

-ترشيد المؤسسة الدينية: وخاصة المساجد التي تحتلّ منزلة مهمّة في ضمائر العرب المسلمين إذ هي فضاء تربوي وتعليمي بامتياز. لكننا لاحظنا أن هذا الدور التربوي وبعد ثورة الربيع العربي انحسر، إذ تحوّل المسجد في ليبيا وفي تونس إلى فضاء لاستقطاب الجماعات التكفيرية وفضاء للصراعات المذهبية والفكرية الضيقة، ممّا قد يغري الشباب الناشئ بالتطرف والانحراف. لذلك لابدّ من حماية المساجد من التشدد الديني ومن الشعارات الجوفاء، لتكون مؤسسات ذات "سلطة أدبية فاعلة حتى تتبنى حاجيات المسلمين إلى مزيد من العدل والمساواة والإخاء والكرامة"[65]. لقد آن الأوان لنسف مفهوم الزعامة الدينية التي تدعي امتلاك سلطة قهرية إكراهية تحتكر فهم النص الديني وتقصي الآخر، لأننا أحوج ما نكون اليوم إلى "أن نحرّر العقل العربي من الوصاية من رجال الدين وغيرهم، ممّن يدعون الوصاية على تفكير الناس ومعتقداتهم، لينطلق هذا العقل دون قيود دارسا للكون، ومحلّلا له، واعيا بقوانينه، ليسهم في تغييره وتغيير واقعنا الأليم"[66].

ثم إنه من الأهمية بمكان أيضا إبعاد المساجد عن عالم السياسة لأنها وظفت لأغراض سياسية، فلم تترك الدولة أمامها "إلا أحد خيارين: إما أن تكون أداة في يد الدولة أو سيفا في خاصرتها"[67]. وعليه فمن المهمّ إبعاد دور هذه المؤسسات الدينية عن التجاذبات السياسية، خاصة بعد أن "أصبحت المساجد والمؤسسات الدينية مصنفة وتمثل اتجاهات سياسية، لا سيما بعد أن ضيقت الدولة العربية من نشوء مؤسسات مدنية، فتمّ توظيف المسجد لأغراض سياسية، بينما نجد أن المجتمعات المستقرة فتحت مجالات لعمل المؤسسات، ومكنتها من المشاركة في القرار وفقا لقواعد متفق عليها سلفا"[68].

-تجديد الخطاب الديني: ونروم بالخطاب الديني القراءة الذي ينسجها العقل المسلم للنصوص التأسيسية قرآنا كريما وحديثا نبويا شريفا، إذ ما أحوجنا اليوم إلى تجاوز قراءات القدامى لأن "الذين اجتهدوا وتفكروا في الدين لا يمكن أن يكونوا سندا أبديا للفكر الديني على مرّ التاريخ وإلى يوم القيامة، ذلك لأنهم عاشوا عصورا تختلف عن عصرنا، وظروفا مغايرة لظروفنا، وأفكارا وطموحات لا تمتّ لعصرنا بصلة"[69]. وعليه يغدو من الأهمية بمكان تجديد قراءة نص القرآن لأنه نص ما زال لم يقرأ بعد على حد تعبير يوسف الصديق[70]، والمرء اليوم في حاجة ماسة إلى تقصي معاني هذا النص التأسيسي، متوسلا الأدوات المعرفية الحديثة ومستنيرا بالمناهج العلمية المعاصرة كالتحليلية والتفكيكية ومنفتحا على العلوم الإنسانية كعلم لتاريخ والفلسفة وعلم الأديان المقارن وغيرها. باختصار لا بدّ من إخراج القرآن من نطاق القراءة السطحية الضيقة إلى القراءة المنفتحة التي تؤمن بحركية النص كي "يبقى منفتحا وقابلا للتحيين والقراءة المتجددة وفق الوضعيات التاريخية التي يعيشها كل مؤمن في الفترة التاريخية التي ينتمي إليها"[71].

-ترشيد المؤسسة الإعلامية: تتبوأ الوسائط الإعلامية منزلة مهمة في عصرنا الراهن عصر العولمة، غير أننا بتنا نلاحظ وخصوصا إبان ثورات الربيع العربي أن الإعلام ما عاد هادفا وما عاد خادما للإنسانية وللوطن. إذ نلفيه يذكي شرارة التطرف ببث أفكار الجماعات المتطرفة الهدامة، بل ربما كان هذا الإعلام وسيلة هذه الجماعات في الدعاية لأفكارهم المتطرفة والتأثير في السامع المتقبل وهي أفكار سرعان ما انتشرت عبر وسائل الاتصال العديدة كالأنترنيت والفيسبوك(Facebook) والتويتر(Twitter).

لذلك أضحى من الضروري ترشيد الإعلام بجعله أداة فعالة لمكافحة التطرف، ولا يكون ذلك إلا ببث برامج توعوية خصوصا للناشئة الأحداث لأنّها الأبلغ تأثرا بالفكر المتطرف. وهي برامج يقع

التنبيه فيها إلى خطورة التطرف باعتباره فكرا منغلقا يقصي الآخر ويلغي التعدد. ثم إنّ الإعلام مدعوّ أيضا إلى بث برامج تتعلق بموقف الإسلام الرافض للعنف والتنطّع والتعصب وأن التطرف بدعة أنتجها الفكر الدوغمائي، وباركتها المؤسسة الدينية التي ادعت امتلاك الحقيقة والفهم الصحيح لآي القرآن الكريم.

-تثبيت ثقافة التسامح والتعايش السلمي: لا شكّ أن التطرف ظاهرة عامة اجتاحت كل الوطن العربي، وهي ظاهرة خطيرة نخرت جسمي ليبيا وتونس لأنها كانت حركة تمرد على المنوال النموذجي الذي يوجه ثقافة الشعوب وجهة متوازنة ومطمئنة. فهي على هذا النحو وجه من وجوه أزمة الأمة، ولا سبيل لحل هذه الأزمة إلا بترسيخ قيم التسامح والمحبة والسلم واحترام الآخر، لأن هذين البلدين ضاقا ذرعا بالتطرف باعتباره بوابة للإرهاب وباعتباره وجها من وجوه العنف الذي "لم يعد محصورا داخل المجتمع الواحد، وإنّما أصبح شائعا على صعيد الكرة الأرضية بأسرها، لقد أصبح عالمنا مليئا بالعنف ومهدّدا بالعنف"[72].

وعليه إذن فالتطرّف لا خلاص منه إلّا بإقرار المغايرة، لأنّ الآخر هو قدرنا الذي لا مهرب منه، ولا مناص من التطرّف إلا بالاعتراف بأن الاختلاف واقع يخترقنا، بل هو محدد لهويتنا "ما دامت الهوية لا تدرك إلا بالتعارض مع الآخر، بل ما دامت الهوية هي ما يتعارض مع ذاته وينقسم على نفسه، هكذا فالآخر هو أزمتنا الذاتية، أي أزمة أن نكون مختلفين. ولا مجال لاستبعاده أو نفيه والأحرى الانفتاح عليه والوقوف على حقيقته وتقبل صورته"[73]. والتقبل لا يكون إلا بالتكيف مع الآخر والإصغاء لرأيه وحسن مجادلته عملا بالآية القرآنية: "وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ"[74]. باختصار لا سبيل إلى درء التطرف إلا بالاقتناع أن الاختلاف طبيعي والتعدد مشروع حتى نأمن عاقبة التعصب الأعمى والتحزب التي لا تورث إلا العداوة والبغضاء والاقتتال البغيض.

-مدّ جسور التواصل مع بلدان الجوار: من الواضح أن قضية التطرف ما عادت همّا ذاتيا لوطن مخصوص دون سواه، بل هي مشكلة أممية اخترقت كل البلدان وهددت أمن المنطقة العربية خاصة، لذلك يحسن بليبيا وتونس وبلدان المغرب العربي عموما أن تدرك أن قوتها الحقيقية لن تقاس بمستوى الكفاءة العسكرية وبمستوى عتادها الحربي بقدر ما ستقاس بمستوى الانسجام فيما بينها وتعاونها من أجل تجفيف منابع التطرف الذي لن يكون إلا بتبادل الخبرات العسكرية ووضع أجهزة استخباراتية مشتركة تنبه السلط إلى مواطن تواجد الفرق المتطرفة وإلى

أنشطتها وتحركاتها الإرهابية، فالتطرف أضحى تحديا داخليا وخارجيا في الآن ذاته. وإذن فلابد من تكاتف القوى لدرء شبح هذا الخطر عن المنطقة العربية.

خاتمة البحث

يعتبر التطرف من أهم القضايا المثيرة للجدل لأنها أرقت العالم فشغلت الناس، وأضحت قضية دولية حارقة طرحت على طاولة البحث والتشريح في الأمم المتحدة وعلى صعيد المجتمع الدولي، لأنها باتت حقا خطرا يهدد المنطقة العربية بل داء عضالا فتك بليبيا وتونس بشكل خاص ولافت للانتباه. وإن المتدبر في هذه الظاهرة ليتنبه إلى أن أسبابها ومظاهرها تكاد تتقارب في هذين البلدين، وإن اختلفت المعطيات المجتمعية والاقتصادية والجيوسياسية. ولمّا كانت هذه الظاهرة على هذا النحو من الخطورة لأنها أسهمت في تمزيق النسيج المجتمعي وعمقت هوة الخلافات والنزاعات بين أبناء شعبه، فقد غدا من الضروري التصدي لهذه الآفة بكل الطرائق ولا سبيل لتجفيف منابع التطرف إلا باحتواء الشباب وإصلاح النظام التربوي وترشيد المؤسسة الدينية والمؤسسة الإعلامية وتحديث الخطاب الديني وتكريس ثقافة التسامح والتعايش السلمي ومدّ جسور التواصل مع مناطق الجوار. على ذاك النحو فقط يمكن أن نأمن غائلة التطرف وأن نحد من استفحاله الذي قد يسهم في تعزيز نفوذ التنظيمات الإرهابية.

الهوامش:

[1] - عبد الله العروي، مفهوم الإيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثامنة 2012، صص66/65.

[2] - انظر بياربونيت وميشال إيزار، معجم الأثنولوجياوالأنتربولوجيا، ترجمة مصباح الصمد، المعهد العالي العربي للترجمة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع مجد، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى 2006، ص.264، (مادة إيديولوجيا).

[3] - سعيد عموري، الكتابة والتشكيل الإيديولوجي في الرواية العربية، بحث لنيل شهادة الدكتوراه، إشراف الطيب بودربالله، جامعة الحاج خضر باتنه، الجزائر، السنة الجامعية 2012-2013، ص.7.

[4] - عبد الله العروي، مفهوم الإيديولوجيا، ص.28.

[5] - ياكوبباريون، ماهي الإيديولوجية، ترجمة أسعد رزق، الدار العلمية بيروت، 1979، ص.31.

[6] - محمد سبيلا، وعبد الله بن عبد العالي، الإيديولوجيا، سلسلة دفاتر فلسفية، نصوص مختارة، دار توبقال للنشر، المغرب، الطبعة الثانية 2006،

[7] - سعيد عموري، المرجع نفسه، ص.18.

[8] -

[9] - لويس ألتوسير، ماهي الإيديولوجية؟، ترجمة محمد سبيلا وعبد الله ملام بنعبد العالي، دفاتر فلسفية، ص.10.

[10] - زكريا إبراهيم، مشكلة الفلسفة، مكتبة مصر، الفجالة، مصر، د.ت، ود.ط.، ص.183.

[11] - انظر العروي، مفهوم الإيديولوجيا، ص.47.

[12] -. المرجع نفسه، ص.73

[13] - المرجع نفسه، ص.47.

[14] - نديم البيطار، الإيديولوجيا الانقلابية، المؤسسة الأهلية للطباعة والنشر، بيروت، 1964م.

[15] - عبد الله العروي، الإيديولوجيا العربية المعاصرة، تعريب محمد عيتاني، باريس، ماسبيرو، بيروت دار الحقيقة، 1971.

[16] - عبد الله العروي، مفهوم الإيديولوجيا، ص.161.

[17] - سعيد عموري، الكتابة والتشكيل الإيديولوجي في الرواية العربية، ص.29.

[18] - إسماعيل صبري ومحمد محمود ربيع، موسوعة العلوم السياسية، الكويت، جامعة الكويت، 1994، ص.268، نقلا عن علي حسين عمار، الموسوعة السياسية للشباب، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2007، ص.22.

[19] - انظر سعيد عموري، الكتابة والتشكيل الإيديولوجي في الرواية العربية، ص.30.

[20] - ابن مظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة 1999م، (مادة: طرف).

[21] - انظر أبو الحسين أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 1979، الجزء3، ص.447.

[22] - انظر المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، مصر، الطبعة الرابعة 2004م، ص.555.

[23] - انظر:

Albert Breton and others, PoliticalExtremism and Rationality, Cambridge Univ.Press, 2002, p.13

[24] - ابن منظور، لسان العرب، (مادة غلا).

[25] - المرجع نفسه، (مادة نطع).

[26] - المرجع نفسه، (مادة عصب).

[27] - المرجع نفسه.

[28] - المرجع نفسه.

[29] - علي أسعد وطفة وعبد الرحمان الأحمد، التعصب ماهية وانتشارا في الوطن العربي، عالم الفكر، عدد3، المج.30، يناير/ مارس2002، ص.

[30] - المرجع نفسه، ص.82.

[31] - انظر المعجم الوسيط، (مادة رهب)، ص.376.

[32] - تشارلز تاونزند، الإرهاب، ترجمة محمد سعد طنطاوي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، الطبعة الأولى 2014، ص.9.

[33] - علي بن مبارك، التطرف الديني من منظور ثقافي، مقال صادر بشبكة مؤمنون بلا حدود بتاريخ 25 مارس 2015.

[34] - سعيد بن عبد الله مخلوفي، علاقة العنف الأسري بالسلوك العدواني، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، مج13، عدد1، يونيو2016.، ص.30.

[35] - ألديو ليلى، التفكك الأسري وأثره على البناء النفسي والشخصي للطفل: دراسة سوسيونفسية، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، عدد11، جوان 2013، صص.56/55.

[36] - انظر:

-Maurice Godelier, Les Tribus dans l'histoire et face aux états, Paris, CNRS, éd.2010, p.17.

[37] - انظر ديل أيكلمان، الانتماء القبلي في وقتنا الراهن: التداعيات والتحولات، مقال صادر بمجلة عمران، العدد19، مج.5، شتاء2017، ص.61.

[38] - انظر فرج محمد صوان، التعصب القبلي وآثاره في ليبيا، مقال صادر بدنيا الوطن بتاريخ 7-12-2018.

[39] - المرجع نفسه.

[40] - سامية خضر صالح، البطالة بين الشباب حديثي التخرج، جامعة عين شمس، د.ت.، ص.13.

[41] - علي حرب، نقد الحقيقة، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى 1993، ص.34.

[42] - محمد حمزة، الفكر الإسلامي ومأزق التأويل، مؤمنون بلا حدود، قسم الدراسات الدينية، 13 فبراير 2017، ص.3.

[43] - على حرب، نقد الحقيقة، ص.35.

[44] - كالآية الخامسة من سورة التوبة مثلا.

[45] - إسماعيل صديق عثمان، التطرف والتعصب الديني: أسبابه والعوامل المؤدية إليه، المجلة الليبية العالمية، عدد28، 25سبتمبر 2007، جامعة بنغازي كلية التربية المرج، ص.8.

[46] - البقرة2: 190.

[47] - علي حرب، نقد الحقيقة، ص.91.

[48] - انظر عبد الكريم سروش، الصراطات المستقيمة، ترجمة أحمد القبانجي، دار الفكر الجديد للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى النجف، د.ت.

[49] - عز الدين عناية، العقل السياسي: عوائق التحرر وتحديات الانبعاث، دار الطليعة، بيروت، د.ت.، ص.24.

[50] - محمد مختار جمعة، تفكيك الفكر المتطرف، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، الطبعة الأولى 2016، ص.8.

[51] - حسن حنفي، تعصب/ تسامح، ص. 175، ضمن تاليف جماعي، أضواء على التعصب، دار أمواج للطباعة والنشر، بيروت/لبنان، الطبعة الأولى آذار1993..

[52] - ناصيف نصار، في نقد التعصب، ص. 203، ضمن نفس المرجع.

[53] - المرجع نفسه، ص.207.

[54] - أندريه هينال وآخرون، سيكولوجية التعصب، ترجمة خليل أحمد خليل، دار الساقي، الطبعة الأولى 1990، ص.18.

[55] - المرجع نفسه، ص.10.

[56] - علي حرب، نقد الحقيقة، ص.39.

[57] - محمود كيشانه، التطرف بين الدين والتدين، صص.37-38، مقال ضمن مجلة ذوات عدد6، سنة 2015.

[58] - يقول (Jean- Guy - Vaillancourt) في هذا الصدد:

« Les radicaux et les extrémistes sont des groupes qui utilisent parfois la force, la violence pour promouvoir leur message religieux ». Jean – Guy- Vaillancourt, L'extrémisme religieux, article publié dans la Revue Notre-Dame, Québec, vol.104, n° :4, avril 2006, p.7.

[59] - محمود كيشانه، صناعة الموت: قراءة في تفكيك العقل المتطرف، مقال صادر بموقع مؤمنون بلا حدود بتاريخ 20أفريل 2018.

[60] - عبد الحسين شعبان، التطرف والإرهاب: إشكاليات نظرية وتحديات عملية، مراصد، كراسات علمية عدد42، ديسمبر2017، ص.13.

[61] - أماني السيد عبد الحميد حسن، العنف الأسري وعلاقته بالاتجاه نحو التطرف لعينة من الشباب الجامعي، نحث لنيل شهادة الماجستير، إشراف محمد محمد بيومي خليل ومنى خليفة علي حسن، جامعة الزقازيق، مصر السنة الجامعية 2009، ص.76.

[62] - إيميل دوركايم، التربية والمجتمع، ترجمة علي أسعد وطفة، دار معد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الخامسة 1996، صص.67/66.

[63] - رحومة حسين أبوكرحومة، المناهج الدراسية في بعض المدارس الدينية في ليبيا في القرن العشرين، مجلة أصول الدين، عدد22، ص.488.

[64] - مصدق الجليدي، تعلمية التربية والتفكير الإسلامي ص.284، ضمن كتاب تجديد التعليم الديني: سؤال الرؤية والمنهج، إشراف محمد جبرون، مؤمنون بلا حدود، سلسلة ملفات بحثية، الطبعة الأولى 2016، المملكة المغربية/ لبنان.

[65] - عبد المجيد الشرفي، لبنات، سلسلة معالم الحداثة، دار الجنوب للنشر، تونس،1994 ، ص.83.

[66] - محمد يونس، التكفير بين الدين والسياسة، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، سلسلة مدارات فكرية، عدد12، الطبعة الثانية 1999، ص.143.

[67] - أحمد شهاب، فرضية التخلص من العنف والتطرف، مجلة الكلمة، عدد92، السنة الثالثة والعشرون، صيف 2016، ص.15.

[68] - المرجع نفسه، ص.16.

[69] - أبكر عبد البنات آدم، تجديد الخطاب الديني(دراسة مقارنة)، مجلة جيل الدراسات المقارنة، عدد4، أفريل2017، ص.29.

[70] - انظر:

-Youssef Seddik, Nous n'avons jamais lu le Coran, Med Ali Editions, 1ère Edition 2015.

[71] - محمد حمزة، الفكر الإسلامي ومآزق التأويل، مؤمنون بلا حدود، قسم الدراسات الدينية، 13 فبراير2017، ص.10.

[72] - محمد أركون، نحو تاريخ مقارن للأديان، دار الساقي، بيروت، الطبعة الأولى 2011، ص.321.

[73] - علي حرب، نقد الحقيقة، ص.31.

[74] -النحل 16: 125.